الساعة الرهيبة

كسر النسر طرفَه إعياء ... بعدما قرّح الجفون بُكاء
لو أصاب الفرات رزءُ حسين ... لانطوى النهر كالرداء انطواء
ولغاضت شطآنه واستطار الر ... مل ، في خاطر الأثير ، هباء
شرّدوه عن وكره ورموه ... حيث يستوحش العراءُ العراء
وتبارى الرماة يرمون نسراً ... حُرم القوتَ حلقُهُ والماء
حرموه إخوانه وبنيه ... نثروهم على الثرى أشياء
ها هنا من فراخه بعض ريش ... وهنا التربُ يلفظ الأحشاء

* * *

حضن الطفلَ نجلَه ، وهو عبد ... الله ، عبدٌ ضمّوا اليه السماء
جدّه شرّف العروبة قدراً ... واسمه الفخم ، شرّف الأسماء
ضمَّه الوالد اللهيف ، لعلّ ... الحبّ يقصي عن الصغير العناء
أيُّ طفل ؟ كأنه الوردة الحمراء ... جفَّت ، لم تشرب الأنداء
في صفاء الشمع المذاب جبينٌ ... كلما الحلم ماج فيه أضاء
سرحت أنملُ الحزين بشعر ... فكأن الحسين مسّ ذُكاء
خُصَل من أشعة الشمس سالت ... وتهامت ضفائراً شقراء
وكأن الذوائب الشقر أضواء ، ... تؤدي الى الحزين العزاء
وإذا في الفضاء سهم يصكُّ ... السمع صكّاً ويجرح الأصداء
حسِبَتْه العيون نفثةَ بركان ... تبدّت شرارة سوداء
شقَّ نحر الذبيح فاندفق ... المرجان ، يكسوه حلّة حمراء
مهجة البرعم الرضيع تلقّاها ... حسين ، بكفِّه ، أجزاء
قلبه سال في يديه فلا يدري ... أقلباً أراقه ، أم دماء
روّعته الجفونُ ، مسبلةَ الأهداب ... كالزهر إذ يموت انطفاء
ذلك الفجر لم يُمتَّع بصبح ... وقُبيل الصباح لاقى المساء
جفَّ دمع الحسين ، والماء لا يبدو ... ان الأرض أصبحت رمضاء

مُلجِمُ الدمع ، يلجم النار ... في الأجفان تشتد زفرة وصلاء
إنما حرقة الكآبة أقوى ... حين تبقى كآبة خرساء

* * *

وتهاوى النسور وُلدُ عليّ ... فاستماتوا أشاوساً كبراء
ثبتوا في العراك لا يأملون ... النصر ، لكن ضحية وافتداء
علّموا الدهر بعدهم كيف تفنى ... اخوةٌ تشرب الردى بُسلاء
سطّروا بالدماء صفحة مجد ... غمروها محبة واخاء
هلّلت روح هاشم من وراء ... الغيب تدعو الجحاجح الأمراء
وكأن الروح الكبيرة قالت ... بعدما أنصت العلى اصغاء
يا بني هاشم نعما فعلتم ... وهززتم أعطافنا خيلاء
ان تنل منكم السيوف لقد ... نالت كراما ، أعزة ، نبلاء
ظمئت في مراتع الذل ... فاشتاقت ظباها مروءة وإباء
ما هويتم إلا عقيب قتال ... فرش السهل منكم أشلاء
فتبعتم أعضاءكم للمنايا ... شيمة الجسم يتبع الأعضاء

* * *

ويقول العبّاس للسبط هيّا ... ننزل الماء لن نموت ظماء
همّ ان ينزل الفرات فنادى ... دارميٌّ يا ويحكم جبناء
«امنعوه المياه يهلك» فإن ... الرمل يشتاق في الهجير شواء
«يا الهي أظمئه قال حسين ... وليذق فائر الجحيم جزاء»
يحرق المهل كبده وعلى ... النيران عريان يسحب الامعاء
غضب الدارميّ فاستل سهماً ... زاده البغض حدة ومضاء
سلّه من كنانة تلمع ... الأنصال فيها أسنة زرقاء
ورماه ، فرنّ في مسمع ... الشيطان سهم تقمّص البغضاء
فاستعاذ الهواء من سهم نذل ... لوّث الأرض سهمه والهواء
وأصاب الحديد وجه حسين ... فأصاب التفاحة الزهراء
فرّق اللؤلؤ النظيم من الأسنان ... فاسترسل العقيقُ غشاء
نزع النصل بالأصابع والصـ ... ـنديد يضفي دماءه حنّاء
جُرح السبط ، والدم السمح ... لم يردع لثاماً زعانفاً أعداء
لم تُنوّر دماء فاطمة الزهراء ... منهم نواظراً رمداء
أو قلوباً تراكم الشرُّ فيها ... فاستحالت حجارة صماء
كل ذنب يمدّها في دجي ... الاثم مداً ، وفي العماء عماء
مات وجدانها فلو نام نوماً ... لصحا من دجى الضلال وفاء
لرأى في الجراح مهجة طه ... و(حنيناً) و(خيبراً) و(حراء)

منظر الدم ليس يلجم سرحالاً ... ولكن يزيده اغراء
يوقظ الناب والمخالب فالمجروح ... يوحي الى الذئاب الضراء

* * *

وأتاه الكنديُّ يضرب رأس ... السبط، يفري العمامة الشماء
فيشقُّ الحسام فروة رأس ... لو علت منكب السماء لناء
باد صحب الحسين إلا غلاماً ... يُخجل الطلّ رقة وسناء
يا شفار السيوف رفقاً بعبد ... الله، يفترّ وردة بيضاء
فرّ من خيمة النساء، وجاء ... العمّ يفدي، فما أجل الفداء
يولد الطالبيّ شهماً، فإن ... يصبح غلاماً توقّل الجوزاء
نفست عمة الصبي على الموتى ... بضيف لم يُثقل الغبراء
يجرح الضوء خدّه، ويُشيع ... اللحظ في رَيّق الجبين الحياء
لو أتى الورد قاطفاً، لتحامى ... الشوك أن يخدش الفتى الوضاء
أو أتى النهر في الضحى مستحماً ... نثر الدوحَ للحييّ الغطاء
حاولت زينب تصدّ فتاها ... من يصدُّ الفتوّة الهوجاء
احبسيه قال الحسين. فلم تفلح. ... وزادت على اللظاء لظاء
قال اني أموت في ظل عمي ... بعد عمي أرى الحياة عفاء
خفّ نحو الحسين (بجر بن كعب) ... يضرب السبطَ ضربة نكراء
فوقاه الصبي بالكفِّ، غار ... السيف فيها فأصبحت جرداء
علقت بالإهاب كالغصن مقطوعاً، ... عليقاً بقشرة غضراء
رامها الطالبي للعم ترساً ... فدحاها سيف العدو لواء
صاح: أماه! لم يزد. فكأن ... الفرخ، في يقظة المنون تصاءى
أصبح السبط مفرداً بين أموات، ... وكانوا غصونه الخضراء
دوحة في العراق تلفحها ... الرمضاء والريح صرصراً نكباء
ماله في الذكور غير (علي) ... طفله مدنفاً يصارع داء
حوله نسوة جياع ثكالى ... كل أنثى تقمّصت خنساء
نظر السبط للخيام طويلاً ... مستميتاً يودع الأحياء
فارتدى حلّة الممات سراويلا ... يمانية تناهت رواء
يتّقي العُري والهوان عقيب الموت ... يُضفي على القتيل الكساء
هاجموه، فقبّل السيف إجلالاً ... لذكرى أشاوس عظماء
ذكر الجد والأب الفارس ... المغوار، فاهتز سيفه كبرياء
قال: يا ذا الفقار أيد يميناً ... لم تُعوّد إلا العلى والسخاء
تتغنى بها الحداة افتخاراً ... فتوري سيوفهم والحداء
كيف أتى أبي ولم ألبس ... البيداء مجداً، وأشبع الدقعاء

فيراني عبر الجنان ويغضي ... ويولّي عن نجله استحياء
قال : وانقضّ هيصراً[1] يطلب ... المعزى ، فيردي تيوسها والجداء
يطلب الأقرن الشديد فلا ... يسطو بعنزٍ ضعيفة جمّاء
منذ صار الحديد نصلة سيف ... أو سناناً لصعدة سمراء
لم يشاهد مثل الحسين شجاعاً ... وصبوراً يغالب الأسواء
ظامئاً ، ثاكلاً ، لهيفاً، جريحاً ... في عدو يكاثر الدأماء
صانك الله ذا الفقار فكم ... فلّقت درعاً ، وكم هدمت بناء
تستفزُّ الحسين للضربة النجلاء ... تغري بضبة عصماء
صنت عهداً للطيبين جدوداً ... لم تعكر مودة وولاء
عجباً للحديد يذكر عهداً ... ورعاع يستغربون الوفاء
صفوة الأكرمين في كل عصر ... ضمروا في ديارهم غرباء
فالجماهير تخنق العبقري ... الحر خنقاً وتعبد الغوغاء
في ركاب الرعيان يمشي قطيع ... الشاء ، ويلٌ لمن أضلَّ الشاء
يسمعون العواء صدح هزار ... حين تسترسل الذئاب عواء
حصد السيف كل أحمق جاء ... السبط فالميتة القريبة جاء
لم يخيب إرثُ الرسول حفيداً ... حسبه ان يهزُّه إيماء
لا سبيل إليه إلا سهام ... فتنادوا وأمطروه البلاء
نثروها كما الرياح السواقي ... تستقل الرمال والحصباء
أنصلاً يطلقونها من بعيد ... فترامى في جسمه عمياء
كان ورداً ، بدون شوك ، فراح ... الشوك يخفي من الورود البهاء
كان نسراً بدون ريش فصار ... الريش وقراً يحطم الأحناء
فتح الرمل قلبه مستهاماً ... يتلقى من الحسين الدماء
يستبيه الدم النفيس ، كسمط ... الدرّ يغري الصيارف البخلاء
يتلقى دماء طه كنوزاً ... سائلات فتستفيض ثراء
ويباهي في الأرض ، كل بقاع ... الأرض ، حتى يكاد يغزو السماء
ويباهي فكل حبّة رمل ... دونها حلية الملوك غلاء
دونها تربة العراقين والزوراء ... من بعد ما غدت زوراء
ولآلي زبيدة وجبال التبر ... تمشي لترفع الزبّاء[1]

* * *

نظر الشمر ما به من شحوب ... فرآه يكاد يهوي عياء
كإناء أفرغته ، فهبوب الريح ... يلوي ، الى الصعيد ، الإناء

---

(١) الهيصر : الأسد .
(١) الزباء : زينب ملكة تدمر .

أو كسوق السنابل الهيف جفّت ... فغدت بعد نضرة حصداء
صوّحت في الهجير سنبلة ... الخيرات لاقت قطيعة وجفاء
فبدت في الشحوب سلك نضار ... يتهاوى في بقعة ربداء

* * *

صاح شمرٌ بالناس هيّا اقتلوه ... أتراكم أصبحتم رحماء
قام بالسيف زرعة بن شريك ... شرّ من أنبت الورى لؤماء
ضرب الكتف والترائب حنّت ... كحنين الناعور يُرخي الدلاء
ندّ عن دوحة الأكارم غصن ... دونه كل روضة غناء
وتلاه بطعنة (نُخعيٍّ) ... فأطنّت فقاره والصلاء
تبعتها شفارهم تتوالى ... كالزنابير تطلب الحلواء
مالت الدوحة الرفيعة فانهارت ... قواها وهزت البيداء
وانبرى الشمر يذبح السبط ذبحاً ... ليت كانت يمينه شلاء
فصل الرأس عن قتيل شهيد ... فعن الشمس قد أزال الضياء
يبتغيه هدية لعُبيد ... الله يرجو نواله والثناء
هامة السبط في الغنائم تهدى ... لخليع يدنّس الخلعاء
لابن مرجانة ! كذلك يحيٰ[1] ... قرّبوا رأسه الى رقطاء
فإذا لم يكن (عُبيدٌ) بغيّاً ... فلقد كان للنفوس بغاء
ويلكم يا عصائب الشر ... أولاد الثعابين تلسع الأبرياء
لا تصلّي إلا رجاء نوال ... وتصلّي فتذبح الأنبياء
قد نقعتم صفيحة الأرض سمّا ... وطليتم وجه الزمان رياء

* * *

جردوه من الثياب وضنّوا ... ان يبقّوا على الحسين غطاء
فابن بنت الرسول عريان ، ... والأبراد تكسو الفجّار واللقطاء
نزعتها عن الشهيد لصوص ... ولدوا يوم أسقطوا أدنياء
أوطأوا الخيل ظهره فاستعاذ ... الصلب وانقضّت الحنايا التواء
سخّروا يوم قتله كل شيء ... سخّروا الماء ، سخّروا العجماء
انعالُ الأفراس داست حسيناً ؟ ... يا ابن (سعد) هلّا قضيت حياء
ما كفاهم سلب الحسين فراحوا ... يسلبون المخدّرات النساء
ربّ انثى تستّرت برداء ... واستغاثت فجاذبوها الرداء
تتهاوى على الجُدالة ظمأى ... ردّها الجوع صورة عجفاء
هدّها مصرع النسور فذابت ... في الشرارات شمعة صفراء

* * *

(١) يحيٰ هو يوحنا بن زكريا الذي قطع هيرودس رأسه وقدمه لراقصة فاجرة .

زينب الطُهر والبهاء ، أفاض ... الله فيها من السماء البهاء
بنت بنت الرسول جمّلها ... الباري فصاغ الخميلة العذراء
أخذت حكمة الرجال فردّت ... ما رواه الرواةُ عن حواء
لو رأتها حواء في الغيب لارتدّت ... الى الرشد حشمة وإباء
إيه أخت الحسين بنت علي ... حُمِلت ما يزلزل البطحاء
أقسم الدهر أن ينالك ... بالأرزاء حتى يستنفد الأرزاء
نال قلب الزهراء منه كلوم ... وهو ما انفك يجرح الزهراء
فاصبري فالحياة دار عذاب ... حسبك الخلد جنة فيحاء
كل أيامها ربيع مقيم ... يكسف القيظ بهجه والشتاء

* * *

عُصبة الشر رحمة بالسبايا ... أبنات الرسول صارت إماء
يشتكين العراء والظمء ، والأسواء ... والثكل والجوى ، والحفاء
قد أبدتم رجالهن وكانوا ... في شراع بين النجوم تراءى
أنتم سقتموه للبحر صخّاباً ... ومزّقتم الشراع افتراء
ونبذتم ربّانه في عباب ... اليم فرداً لا يبلغ الميناء
كلما حاول الرسوّ غدرتم ... ومنعتم شراعه الإرساء
زورق في الرياح ، في غضبة ... الآذيّ ، يجري فيلطم الأهواء
لا سبيل الى الرجوع ، ولا ... ثغرٌ وفيٌّ يظلُّه إيواء
ودفعتم به الى القعر يهوي ... هكذا النمر يكرم النزلاء
فنجت حفنة من النسوة الغرقى ... وطفلُ تبغونهم أسراء
عصبة الشر بتُّم سبّة الأزمان ... ما دامت السماء سماء
أنتم الخسّة التي تطلع ... الأقذار منها فتستحيل وباء
لست أهجوكم فإن سهام ... النقد تجري فتجرح الوجهاء
وأراكم قذارة في يراعي ... فأنا عنكم أجلّ الهجاء
قتلكم عترة النبيين غدراً ... قد أهان العروبة العرباء
أذبل النور في رياض دمشق ... وأمضّ القصور في صنعاء
واستفاقت أم القرى وبياض ... الفجر يكبو ، ويلتوي إبطاء
كعجوز شمطاء تعثر بالأحقاب ، ... تمشي ذليلة عرجاء
ذلك الصبح ينقل النعي ... مشلولاً فيهوي على الحطيم ارتماء
كادت الكعبة الشريفة لولا ... حكمة الله أن تخرّ عياء

* * *

يا ضياء الغروب في كربلاء ... دونك الشمس في الغروب ضياء
كيف باتت والكوكب الضخم يهوي ... مثلما تسقط الجبال انكفاء

أدمع الطف والفرات وغاضت ... زقزقات في أيكة غيناء
صُبغ النهر قانياً وتدلّت ... شجرات تكاد تلقي الرثاء
أرسل العندليب شجو جريح ... واستحرّت فيه الدموع دماء
حسبته العيون ترجيع صبّ ... باعدته الأيام عن حسناء
وهو لو تعلم الغصون نواحٌ ... بَثَّ فيها الأسى بعاشوراء

* * *

يا سليل المطيبين جدوداً ... يفضح الشمس عزة وانتماء
مجدكم صيّر النبيل نبيلاً ... وحباه من العلى ما شاء
أنتم السلّم المكين الى العلياء ... إن رام طامح علياء
وبكم يفتح العظيم طريق ... المجد لكنه يظلّ ابتداء
يلهث السابق المغبّر في الميدان ، ... لا يبلغ النجوم ارتقاء
شرف العين أن ترى البدر ... وضّاء فلا تبتغي اليه انتهاء
يا ابن بنت الرسول حسبك فخراً ... أنك السبط شرّف الشهداء
جدّه شرّف الحجاز ومدَّ ... النور فيه ، وأنس الدهناء
ولظلّت ، جزيرة العرب لولاه ، ... يباباً وقفرة صحراء
جذب الكون نحوها وجلاها ... فغدت كل ربوة سيناء
دمك السمح يا حسين ضياء ... في الدياجير يلهم الشعراء
أيُّ فضل لشاعر ، منك يعتام ... اللآلي ، يصوغ منها رثاء
شاعر مقعد جريح مهيض ... كل أيامه غدت كربلاء

يارب بالخمسة اهل العبا

يارب بالخمسة أهل العبا ... ذوي الهدى والعمل الصالح
ومَن هم سفن نجاة ومَن ... والاهم ذو متجر رابح
ومَن لهم مقعد صدق إذا ... قام الورى في الموقف الفاضح
لا تُخْزِني واغفر ذنوبي عسى ... اسلم من حر لظى اللافح
فإنني أرجو بحبي لهم ... تجاوزاً عن ذنبي الفادح
فهم لمن والاهم جُنّة ... تنجيه من طائره البارح
وقد توسّلت بهم راجيا ... نُجح سؤال المذنب الطالح
لعله يحظى بتوفيقه ... فيهتدي بالمنهج الواضح

الامام الشافعي المتوفى (٦٥٢هـ)